أستاذ عيد وأبو بشارة رحلا على غير موعد..

وصلني صباح يوم السبت الموافق 21.3 خبر وفاة أبو نايف- الأستاذ عيد سويطات، وقد كان الخبر على حين غرة.. لم اصدق ما سمعته.. لأني وبكل بساطة.. ما زالت ذاكرتي عالقة هناك.. حيث نختبئ جميعنا- من الزمن الغادر.. فكيف له أن يقطف الأب والزميل والمربي..

عهدته مذ دخلت المدرسة.. فكانت تربطنا الزمالة.. وكنا نتبادل أطراف الحديث ونتناول معا مهنة التربية والتعليم، ونرشفها على مهل نرشفها بكلمات هنا وهناك.. كلمات ما فتئت أن غارت عن بالي ووجداني..
عرفته وعرفناه جميعنا- أبا ومربيا مشرفا.. أحبه الطلاب لأنه أحبهم. قدّم ما عنده للمدرسة التي أحبّها فأحبته..
ما زلت أذكر حضوره صباحا. والغليون في فمه.. ورائحته العبقة تفوح أرضية المدرسة.. كيف لهذا كله أن يغور؟؟

لم احتمل الخبر المفجع.. فقد صدّني وصدمني.. وما كدت أصحو من غفوته اللعينة، إلا ونزل علي خبر آخر في اليوم الذي تلاه- خبرٌ كالصاعقة.. وفاة عمي أبو بشارة. ذاك الرجل الذي لم يتوان للحظات عن تقديم أية مساعدة لأي كان منا.. كان كل شيء.. - هكذا كان كل شيء- .. في كل مكان كالطيف.. أمامنا وخلفنا وإلى جانبنا.. مع ابتسامته.. و"بقجة" المفاتيح التي كان يحملها أنّى ذهب.. يقف في الساحات وأمام البوابات.. وفي الحمامات.. في غرفة التصوير.. يقتسم وإيانا رغيف الخبز والكعك..

كان يصّور لنا الأوراق، فتخرج أحيانا معوّجة.. نحاول بكل ما أوتينا من قوة أن نلفت انتباهه، لكنه وبأسلوبه الخاص المميّز وببساطة كلماته العفوية- كان "يقنعنا" أنه على صواب.. فننسحب دون أن ننبس ببنت الشفة.. لأن لا جدال مع أبو بشارة.

أبو بشارة.. "شب الحارة".. عنوان لمقابلة أجراها طلاب الصف الثامن قبل بضعة سنوات، حين طلبت منهم أن يجروا مقابلة ويكتبوها، فما كان منهم ألا أن اختاروا أبو بشارة، ليكتبوا عنه.. فكتبوا وكتبوا.. وما أخطأوا..

أبو بشارة وأستاذ عيد.. عملا معا وجمعتهما الجامعة- مار يوحنا الإنجيلي- جمعتهما لسنوات طوال.. وأخذهما الموت معا- كأنهما على موعد هناك.. حيث الهدوء والسكينة وراحة الجسد.

نداء نصير
22.3.2015